

الاستشراق الألماني في القرن العشرين

ميشال مجا

تضاءل استعمال مصطلح «استشراق» في ألمانيا اليوم بعد صدور كتاب إدوارد سعيد (Orientalism) 1978، والذي يمزج بين الاستشراق والاستعمار. فالمصطلح المستعمل اليوم في ألمانيا هو «الاستعراب» (Arabistik) والدراسات الإسلامية (Islamwissenschaft/Islamkunde). والاستشراق موضوع واسع ومتشعب يتناول كل ما له علاقة بالشرق من حيث اللغة والأدب والتاريخ والدين والحضارة وما إلى ذلك. والشرق يقسم إلى ثلاثة أقسام: الأدنى، والأوسط، والأقصى. ونحن لا يهمنا منه هنا سوى ما له علاقة باللغة العربية والتراث العربي وبالإسلام.

لم تكن ألمانيا الدولة الأوروبية الأولى التي اهتمت بالدراسات العربية والإسلامية، فقد سبقتها دول أوروبية أمثال فرنسا وإنجلترا وهولندا. ولعلّ الصفة البارزة للاستشراق الألماني أنه لم يزدهر نتيجة للاستعمار - كما هي الحال مع فرنسا وإنجلترا وهولندا - التي كانت تستعمر أكبر دولة إسلامية هي أندونيسيا - أو يرتبط بأهداف دينية تبشيرية كسواه.

والاستشراق الألماني يمتاز بالموضوعية والعمق. لقد ساهم المستشرقون الألمان أكثر من سواهم بجمع ونشر وفهرسة المخطوطات العربية وخاصة كتب المراجع والأصول الهامة. يقول الدكتور صلاح الدين المنجد: «إن المستشرق الألماني وستنفلد (Wüstenfeld) قد نشر من تراثنا القديم ما يعجز عنه مجمع علمي».

وإلى نشر المخطوطات، فإن أهم ما قام به المستشرقون الألمان وضع المعاجم العربية. وضع فرايتاج (Freytag) (1788 - 1861) المعجم العربي -

اللاتيني في أربعة أجزاء. ثم وضع فيشر (Fischer) (1865 - 1949) معجماً للغة العربية الفصحى. وقاموس أستاذي هانس فير (Hans Wehr) (1909 - 1981) العربي - الألماني للغة العربية المعاصرة. وقاموس شراكه (Schregle) (1923 -) الألماني العربي الذي صدر سنة 1974، والقاموس الضخم للغة العربية الفصحى الذي عمل عليه أولمان (Ullmann) (1931 -) في جامعة توبنغن. ولما زرتة سنة 1980 كان قد وصل إلى حرف الكاف (ك) واليوم وبعد عشرين سنة انتقل العمل على هذا القاموس إلى جامعة ميونيخ ووصل إلى حرف الميم (م). وإن العمل على هذا القاموس سيستغرق مئة سنة ونيّفاً رغم الإمكانيات التكنولوجية والمادية المتوفرة، ورغم أن الذي يعمل على هذا القاموس هو فريق عمل.

عندما نعرف ذلك ندرك كم كان عمل ابن منظور (630 - 711هـ) - واضع قاموس لسان العرب في 15 مجلداً وما يزيد على 8 آلاف صفحة - شاقاً ورائعاً.

كما قام بعضُ الأساتذة من المستشرقين الألمان البارزين بالتدريس في بعض الجامعات العربية وخاصة في جامعة القاهرة أمثال: ليمان وبرجستريس وشاده وشخت. كما أن أول مدير للمكتبة الخديوية بالقاهرة كان المستشرق الألماني شبيتا. ولقد عُيِّنَ بعضُ المستشرقين الألمان أعضاء في مجامع اللغة العربية تقديراً لما قدموه من خدمات للغة العربية والدراسات الإسلامية.

لا يستطيع من يتناول الاستشراق الألماني أن يُهمل ثيودور نولدكه (Nöldeke) (1836 - 1930) الذي اهتمّ بالأبحاث القرآنية إلى جانب اهتمامه بالشعر العربي القديم وخاصة بالمعلقات. وكذلك كارل بروكلمان (Brockelmann) (1868 - 1956) الذي اهتمّ بتاريخ الأدب العربي ووضع كتابه الشهير «تاريخ الأدب العربي» الذي ظهر الجزء الأول منه في أواخر القرن الماضي والذي عمل عليه طيلة نصف قرن من الزمن. وقد نقله إلى العربية، بتكليف من جامعة الدول العربية، الدكتور عبد الحليم النجار ونشرته دار المعارف بمصر في ثلاثة أجزاء، وكتاب آخر هام تركه لنا بروكلمان هو «تاريخ

الشعوب والدول الإسلامية» الذي ظهر سنة 1939 والذي نقله إلى العربية الدكتور نبيه أمين فارس والأستاذ منير بعلبكي سنة (1949 - 1951). وكتابه الرائد «قواعد اللغات السامية» في مجلدين ضخمين (1961).

ويجب ألا ننسى أتوليتمان (Littmann) (1875 - 1958) الذي ترجم كتاب ألف ليلة وليلة إلى الألمانية في ستة مجلدات بأسلوب رائع وهي أول ترجمة كاملة لهذا الكتاب الهام الذي كان له تأثير كبير في أوروبا.

فلنعد إلى صلب الموضوع. فالاستشراق لا ينتهي بنهاية القرن ولا يتوقف، هو عملية مستمرة تتطور وقد تمر بفترات من الضعف والتراجع. ففي الثلاثينات من القرن العشرين أصيب الاستشراق الألماني بانتكاسة عند مجيء النازية إلى الحكم فقد ترك ألمانيا المستشرقون اليهود وبعض الألمان وذهب القسم الأكبر منهم إلى الجامعات الأميركية مما أعطى الدراسات العربية والإسلامية فيها دفعا قويا. وفي فترة الحرب العالمية الثانية أصاب الاستشراق الألماني ركود لانشغال بعض المستشرقين بالحرب ومقتل البعض منهم.

ولكن بعد الحرب أخذ الاستشراق الألماني يستعيد نشاطه. وهنا حصل شيء جديد جاء نتيجة لتقسيم ألمانيا إلى قسمين ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية. ففي ألمانيا الشرقية (DDR) سابقاً أخذ الاستشراق منحىً جديداً بحيث أصبح يركز على الدراسات السياسية والاقتصادية والعقائدية وعلى مواضيع حديثة لم يكن الاستشراق الألماني التقليدي يوليها كبير اهتمام. ولكن هذه الفترة لم تدم طويلاً فتوحدت ألمانيا من جديد.

ويجب ألا نتوقع أنه بتقدم القرن العشرين قد طرأ تغيير جذري على الدراسات العربية والإسلامية في ألمانيا. في الواقع استمرت هذه الدراسات ناشطة وإن يكن من جديد طراً عليها فهو التخصص من جهة وكثرة عدد الشبان والشابات الذين أخذوا يهتمون بها ويُقبلون عليها اليوم مما استوجب تأسيس جامعات جديدة حيث يوجد في ألمانيا اليوم حوالي 25 جامعة تعنى بالدراسات العربية والإسلامية. وهذه الجامعات أخذت تهتم، بالإضافة إلى المواضيع القديمة، بالمواضيع الحديثة مثل دراسة اللهجات العربية المحكية،

والأدب العربي المعاصر من شعر ونثر، وبالقضايا السياسية والتيارات الفكرية وبالقضية الفلسطينية.

ليس من الممكن أن أتناول مئات المستشرقين الألمان البارزين الذين عاشوا في هذا القرن لذلك سوف أقف عند بعض البارزين منهم ممن عرفتهم محاولاً إعطاء فكرة واضحة عن نشاطاتهم وما قدموه للاستشراق من خدمات.

سوف أقف عند رودى باريت (Rudi Paret) (1901 - 1983) أستاذ الدراسات العربية والإسلامية في جامعة توبنغن سابقاً. يعد الأستاذ الدكتور رودى باريت من كبار المستعربين الألمان في هذا القرن وهو متخصص في اللغة العربية والدراسات الإسلامية والقرآن الكريم خاصة. كان الأستاذ باريت يركّز اهتمامه في أول الأمر على الأدب الشعبي عند العرب، ثم انتقل إلى العلوم الإسلامية وركّز اهتمامه على الأبحاث القرآنية. وأهم ما ألفه في هذا الحقل كتابه «محمد والقرآن». وفي سنة 1966 ترجم القرآن الكريم إلى الألمانية. وهو يقول عن ذلك ما يلي:

«لم أتفرغ للبحث في القرآن إلا بعد أن عكفت طويلاً على دراسة وضع المرأة في العالم العربي والإسلامي. مستخلصاً من القرآن كل ما يتعلق بهذا الموضوع من نصوص. ثم وصلت إلى النتيجة التالية: توجد فعلاً ترجمات كثيرة للقرآن إلى لغات أوروبية، إلا أن تفصيلات معينة بالنص كانت إما مختلفة في الترجمات أو غير واضحة! وفي محاولتي لتوضيح هذه التفاصيل توصلت إلى وجهة نظر أبعد، وهي أن الإنسان عند محاولته الشرح لا بد أن يستجمع كل المعلومات الموضوعية والصيغ اللغوية الواردة في مواضع أخرى من القرآن وأن ينظمها ويراعيها عند التفسير. كانت النتيجة الحتمية لذلك وضع برنامج لترجمة القرآن ترجمة جديدة علمية».

تمتاز ترجمة باريت للقرآن الكريم عن سواها من الترجمات العديدة التي وضعت في أوروبا بأنه حرص على أن يكون عمله علمياً وأقرب ما يكون من الدقة والأمانة في نقل المعاني القرآنية من العربية إلى الألمانية، حتى أنه حين تعترضه كلمة يُشكل عليه فهمها على الوجه المقصود، أو لا يطمئن إلى قدرته

على تحديد معناها باللغة الألمانية، فإنه يثبتها بنصّها العربي كما وردت في الآية الكريمة ولكن بالحروف اللاتينية ليفسح بالمجال أمام القارئ لأن يتوصل بنفسه إلى إعطائها المعنى الذي يراه ملائماً لسياق الكلام من دون أن يفرض عليه وجهة نظره الشخصية.

في سنة 1980 زرتّه في منزله في مدينة توبنغن (Tübingen) وكان ذلك قبل وفاته بثلاث سنوات. يقع منزله على هضبة في ضواحي المدينة الشهيرة بجامعتها والتي تُعد اليوم من أهم الجامعات الألمانية للدراسات العربية والإسلامية. وسألته عن دوره في الحرب العالمية الثانية وهو الذي يُجيد اللغة العربية كتابةً ونطقاً. فأخبرني بأنه شارك في الحرب كمتّرجم للجيش الألماني في الصحراء الليبية الذي كان بقيادة الجنرال رومل - ثعلب الصحراء - وأن مهمته كانت مقتصرة على الاتصال بالبدو لتأمين الماشية للجيش الألماني المحاصر في الصحراء. وكان نصيبه أن أسير بعد هزيمة رومل وبقي في الأسر من سنة 1943 حتى 1946.

هانس فير (Hans Wehr) (1909 - 1981)

هو أستاذي الذي درست عليه طيلة أربع سنوات في جامعة مونستر من سنة 1957 حتى 1961. متضلع في اللغة العربية ولهجاتها المحكية وخاصة لهجة الشام التي سجلها أثناء رحلاته إلى دمشق، وكان صديقاً للأديب الدكتور عبد السلام العجيلي. وهو يتقن العربية كتابةً ونطقاً، إضافة إلى نحو عشرين من اللغات السامية واللغات الأوروبية واللاتينية واليونانية القديمة والتركية والفارسية. وقام بتسجيل لهجة الشام درسها اثنان من طلابه هما غروتسفلد وبلوخ ووضعاً أطروحتيهما حولها. وهو صاحب القاموس العربي - الألماني الذي مرّ ذكره، والذي يتناول فيه الكلمات المستعملة في الكتب العربية المعاصرة وفي الصحف والمجلات. وقد تُرجم هذا القاموس إلى الإنجليزية تحت عنوان (A Dictionary of Modern Written Arabic) وطُبع في الولايات المتحدة عدة طبعات سنة 1961 و1966 و1971 وطبعته مكتبة لبنان في بيروت سنة 1974. والجديد في هذا القاموس أن فير أخذ مفرداته من الكتب

والمجلات والصحف الحديثة ولم يرجع إلى المعاجم العربية القديمة. وكان قد جمع مفردات هذا القاموس أثناء الحرب العالمية الثانية، أي ما بين سنة 1940 و1944، ولكن الحرب أتت عليها فعاود العمل من جديد بعد انتهاء الحرب.

وقام بنشر مجموعة من القصص الشعبية تمت إلى ألف ليلة وليلة بصلة هي «الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة» وهي ذات أهمية كبرى بالنسبة إلى تأريخ أدب القصص العربي.

دخل أستاذاً ذات يوم إلى «السمنار» وفي يده رسالة دفع بها إليّ قائلاً اقرأ هذه الرسالة وأعطني «فتوى». قرأت الرسالة فإذا هي موجهة إليه من شركة ألمانية تصنع معجوناً للأسنان يحتوي على مادة كحولية تستفثه فيما إذا كان يصح أن تضع ذلك على علبة المعجون وهل يؤدي ذلك إلى إحجام المسلمين عن استعماله بسبب احتوائه على الكحول؟ بعد 20 سنة طلب مني صديقي الدمشقي ياسين رفاعية أن أكتب موضوعاً حول الاستشراق لمجلة كان يحرر فيها فخطرت ببالي قصة الرسالة تلك فاستوحيث عنوان المقال منها فجاء «الاستشراق ومعجون الأسنان».

لا تزال ماثلة أمام نظري الآية الكريمة التي تزين حائط غرفة الدرس في معهد الدراسات الشرقية في جامعة مونستر «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَكُنَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» (سورة البقرة 2: 115) التي اختارها فير شعاراً له.

آنا ماري شيمَل (1922 -) (Anne Marie Schimmel)

تجدر الإشارة إلى أن الاستشراق الألماني لم يعرف امرأة مستشرقة كبيرة واحدة حتى منتصف هذا القرن. لذلك كانت آنا ماري شيمَل أول أستاذة ألمانية تتبوأ كرسيّاً للدراسات الاستشراقية في الجامعات الألمانية ولذلك فهي عميدة المستشرقات الألمانيات دون منازع. كان ينظر إلى موضوع الاستشراق على أنه موضوع صعب ليس بمقدر المرأة أن تتصدى له أو تخوض في

غماره. إذا استعرضنا كتاب يوهان فوك (Fück) (1894 - 1974) «الدراسات العربية في أوروبا» الصادر سنة (1955) لما عثرنا على اسم لمستعربة ألمانية واحدة. أما اليوم فإن المستشرقة الألمانية باتت موجودة في أغلب الجامعات الألمانية والغربية.

درّست أنا ماري شيمّل في جامعة أنقره بعد أن نالت شهادة الأستاذية من جامعة ماربورج سنة 1946 ثم في جامعة بون وجامعة هارفرد في أميركا. وهي منذ تقاعدها أستاذة شرف في جامعة بون. وهي تُعنى بالدراسات الإسلامية وبالحضارة الإسلامية وخصوصاً في شبه القارة الهندية، وتتقن عدداً من اللغات الشرقية وتكتب بها كالعربية والفارسية والتركية والأوردو والسندية. نشرت حوالي 80 كتاباً تناولت فيها موضوعات متعددة كالدين الإسلامي والحضارة الإسلامية والتصوف والشعر العربي الحديث والآداب الإسلامية في الهند والباكستان، واهتمت بالحلّاج المتصوف العربي الشهير ويمولانا جلال الدين الرومي.

وهي من دعاة الحوار بين الأديان لأن الحوار بين الديانات والحضارات يؤدّي إلى خدمة الحرية والتفاهم وإزالة البغضاء والحقد والعنف والتعصب، وهي تنظر إلى الإسلام على أنه دين سمح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. فمن دون معرفة متبادلة لا وجود لتفاهم متبادل واحترام متبادل أو ثقة متبادلة ولا تحقيق لأي سلام مرجو.

لها الفضل في تعريف الشعب الألماني خاصة والأوروبي عامة، على الإسلام والحضارة الإسلامية. وهي تؤمن بما جاء في القرآن الكريم «كلمة طيبة كشجرة طيبة» (14، 24). وترى أن أساس العلوم التي نعرفها اليوم وضعها العرب وخصوصاً الحضارة العربية التي دخلت أوروبا عن طريق الأندلس في القرون الوسطى يوم كانت أوروبا تعيش في جهل مطبق.

وتقديرًا لعلمها وخدماتها في الحوار بين الحضارات ورفض دمج الإسلام بالأصولية - كما يحاول الكثيرون في الغرب اليوم أن يفعلوا - نالت الكثير من الأوسمة الألمانية والأجنبية والشهادات الفخرية من جامعات أجنبية، وعضوية

الكثير من الجمعيات العلمية. وفي سنة 1995 مُنحت جائزة السلام من رابطة دُور النشر الألمانية، على هامش معرض فرانكفورت للكتاب، قدمها لها رئيس الجمهورية الألمانية.

وهي تدرك أن الإسلام اليوم يمر في تحولات وإيديولوجيات لم يعرفها من قبل تستخدمه كشعار برّاق، ولا تكاد تكون لها أي علاقة بقواعده الدينية، هناك من استخدم الإسلام ليلعب دوراً بارزاً في تأجيج الصراعات المذهبية والعقائدية والأصولية مما يضعه الغرب تحت يافطة «الإرهاب». وهي تدافع عن الإسلام وتبرئه من كل ذلك لأنه ليس في القرآن الكريم ولا في الحديث النبوي الشريف أي نص يأمر «بالإرهاب» أو قتل الأبرياء وأخذ الرهائن. إن الأصوليين المتطرفين الذين يتكلمون باسم الإسلام يتناسون ما ورد في القرآن الكريم: ﴿لا إكراه في الدين﴾ (2: 256). هذه الأعمال تشوّه الإسلام وتجعل الناس، وخصوصاً في أوروبا وأميركا، يرون الإسلام على غير حقيقته. وهي كباحثة تسعى إلى كشف الحقيقة وعدم الأخذ بالمظاهر. وهي تدافع عن رأيها في الإسلام فتقول:

«وقد يتبادر إلى الأذهان أن الصورة التي أرسَمها عن الإسلام مبالغ في مثاليته، وأنها بعيدة عن قسوة الواقع السياسي. ولكنني تعلمت، كباحثة في علم الأديان، أنه يتوجب على المرء أن يقارن المثال بالمثال... إن تصوري للإسلام لم ينشأ من انشغالي على مدى عشرات السنين بالأدب والفن الإسلامي فحسب، بل أكثر من ذلك من خلال تعاملتي مع أصدقاء مسلمين في جميع أنحاء العالم ومن مختلف الشرحات الاجتماعية، ممن استقبلوني بكل مودة وحب في منازلهم وبين أسرهم وعرفوني على تفاصيل ثقافتهم. وأن شعوري بالامتنان لهم جميعاً كبير».

في صيف سنة 1980 زرتها في منزلها في مدينة بون حيث شاهدت في المدخل وعلى الحائط والرفوف لوحات ونقوشاً وخطوطاً عربية وفارسية وكذلك آيات قرآنية كريمة مكتوبة بخط جميل موشاة بماء الذهب مثل: ﴿وَقُلْ جاء الحق وزُهِقَ الباطلُ إن الباطلَ كان زهوقاً﴾ (الإسراء: 17). وفي حوزتها

مقطع من القرآن الكريم مكتوب بخط كوفي جميل موشَّح بماء الذهب واللون الأزرق له عندها مكانة خاصة.

هذه هي المستشركة الألمانية آنا ماري شيمّيل التي أحبّت الإسلام والمسلمين ودافعت عنهم أجمل دفاع ودعت إلى الحوار بين الأديان والحضارات وإقامة جسور التواصل من أجل تحقيق سلام دائم وعادل وتفاهم أفضل بين الشعوب.

الأستاذ الدكتور فريتس شتبات (Fritz Steppat) (1923 -)

الأستاذ السابق في جامعة برلين الحرة والمدير الثاني للمعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، التابع لجمعية المستشرقين الألمان، من سنة 1963 إلى 1968 خلفاً للأستاذ الدكتور هانس روبرت رويمر Hans Robert Roemer (1915 - 1997).

ولد الأستاذ شتبات سنة 1923، ونال شهادة الدكتوراه في الدراسات الشرقية سنة 1954، وكان مديراً لمعهد غوته في القاهرة من 1955 إلى 1959. وهو يتقن اللغة العربية نطقاً وكتابة. وفي سنة 1968 نال شهادة الأستاذية وفي 1969 أصبح أستاذاً للغة العربية والدراسات الإسلامية في جامعة برلين الحرة إلى حين تقاعده سنة 1990.

والأستاذ شتبات متخصص بالعلوم الإسلامية وحاضر العالم العربي والإسلامي. ومن مؤلفاته وأبحاثه:

- القومية والإسلام عند مصطفى كامل.
- العالم العربي في عهد القومية.
- تاريخ العالم العربي.
- الله والفتوة والعلم في رواية نجيب محفوظ «أولاد حارتنا».
- بعض المخطوطات العربية حول أحداث سنة 1860 في لبنان.
- المشكلات السياسية في الشرق الأوسط والمغرب العربي في السياسة الدولية.
- الدول العربية بين الشرق والغرب في السياسة الدولية 1955 - 1957.

- الصراع التاريخي بين القومية العربية والصهيونية.
- جمال عبد الناصر والثورة المصرية.
- مشاريع التربية الوطنية في مصر قبل الاحتلال البريطاني.
- الطريق أمام قيام الوطن الجزائري - النواحي الروحية - الاجتماعية للثورة الجزائرية.

عندما كان أستاذاً للدراسات العربية والإسلامية في جامعة برلين الحرة كان من الأساتذة الألمان الأوائل الذين أدخلوا مواضيع جديدة واهتمامات حديثة حول واقع العالم العربي المعاصر.

والأستاذ الدكتور شتبات يعنى بموضوع الإسلام وتحديات العصر. ويقول إن في أوروبا اليوم من يرى أن الإسلام بات يشكل خطراً على أوروبا. وفي ألمانيا حيث تقيم جالية إسلامية كبيرة أكثرها من المسلمين الأتراك، الذين جاءوا للعمل في ألمانيا منذ عشرات السنين يوم كانت ألمانيا في حاجة ماسة إلى اليد العاملة الرخيصة. وهناك من يرى في وجود هؤلاء تهديداً للحضارة الغربية ومزاحمة على لقمة العيش، مع أن أغلب الأعمال التي يقومون بها لا يقوم بها الألمان.

إن القول بوجود خطر «أسلمة» أوروبا هو قول مثير للسخرية. ويرى شتبات أن وجود هؤلاء يثير بعض المشكلات الاجتماعية والحياتية ولكن لا علاقة لذلك بالدين، فالنزاع ليس حول العقائد الدينية بل هو حول أمور دنيوية. ومن هنا فهو يدعو إلى الحوار بين الأديان. ففي كل دين رجال واعون لأهمية الحوار لأن غاية الأديان إسعاد الناس. والإنسان يسعى إلى السلام، السلام مع نفسه ومع الآخرين. والإسلام مشتق من السلام والتسليم للهزة الإلهية.

رجل حوار وباحث عن الحقيقة، وواع للدور الذي على المعهد أن يلعبه، فهو مثابة جسر بين العالم العربي وأوروبا. وهو تالياً يفسح للباحثين العرب والألمان للتلاقي والتعارف والتحاور. وهو داعية للحوار بين الأديان السماوية. والأستاذ شتبات يرى أن ما يجمع بين الأديان الإبراهيمية الثلاثة:

اليهودية والمسيحية والإسلامية أكثر مما يفرق. فلماذا على هذه الديانات أن تتناحر وتتحارب ما دامت جميعها تدعو إلى عبادة خالق واحد أحد؟ فالمسيحية تعترف بكتاب اليهودية: التوراة. والإسلام يعترف بدوره بالتوراة والإنجيل. والدين ينظم علاقة الإنسان بالخالق ويسعى إلى خلاص الإنسان. لذلك لا مندوحة أمام هذه الأديان السماوية عن أن تتحاور انطلاقاً من الأهداف المشتركة نقاط التلاقي والتوافق. فإذا خلصت النوايا فإن ذلك ليس بالأمر المستحيل. وعلى المتحاورين أن يبحثوا عن الأمور التي تجمع وليس الأمور التي تفرق. كما يجب التخلص من خلفيات الماضي وعدم العودة إلى الحروب الدينية مثل الحروب الصليبية وفتح الأندلس واجتياح الأتراك لأوروبا الشرقية وبلوغهم أسوار فيينا في القرون الوسطى. وهو مؤمن بأنه من الممكن - إذا أوتينا الحكمة - أن نحول دون حصول حروب دينية أو نزاعات مبنية على خلفيات دينية أو مسترة بستار الدين. وبكلمة واحدة: الدين يجب ألا يكون السبب في الصراعات والنزاعات بل على العكس يجب أن يكون عامل تهدئة ومهادنة وسلام.

إن صوت الأستاذ فريتس شتبات هو صوت مسموع في ألمانيا وخارجها ونحن في حاجة إلى مثل هذه الأصوات المتفهمة لمشاكل العالمين العربي والإسلامي اللذين باتا - أكثر من أي وقت مضى - مستهدفين من هجمة الصهيونية والقوى الغربية المهيمنة - التي باتت أحادية القطب - لمؤامرة دنيئة يجب العمل متضامنين على فضحها وإحباطها. فليس كل من يطالب بحقه السليب إرهابياً! والسلام غير الاستسلام! وحق الشعوب حق مقدس أكثر من معرفة الحقيقة! على الغرب أن يعي بكل وضوح أن الزمن تغير وأن الاستعمار ولّى - ولكنه في الحقيقة تغير في الشكل ولم يتغير في المضمون - وأن لا حوار مجدياً مع النظرة الفوقية والقمعية والغطرسة وحب السيطرة والاستكبار! إن الحق لا يصبح باطلاً مهما تألبت عليه قوى الشر!

الأستاذ الدكتور يوسف فان أس (Josef van Ess) (1934 -)

يعتبر الأستاذ الدكتور يوسف فان أس، الأستاذ في جامعة توبنغن سابقاً

من أبرز المستعربين الألمان اليوم. ولد سنة 1934 ودرس في جامعة بون حيث نال شهادة الأستاذية في 1964 وهو مرجع في العلوم الإسلامية وي جيد التكلّم بالعربية ومنذ 1968 أستاذ كرسي الدراسات العربية والإسلامية في جامعة توبنغن التي تعد أهم جامعة في ألمانيا للدراسات العربية والإسلامية. وهو باحث مشهور وأستاذ معروف، ليس في ألمانيا وأوروبا وحسب، بل وفي الولايات المتحدة حيث حاضر ودرّس في أشهر جامعاتها التي تعنى بالدراسات العربية والإسلامية.

زار فان أس لبنان مراراً كما عمل في المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت وكان أستاذاً زائراً في الجامعة الأميركية عام 1967 - 1968.

يهتم الأستاذ الدكتور فان أس بالفقه الإسلامي والحديث وعلم الكلام وبالمعتزلة والتصوف.

وله في هذه المواضيع مؤلفات وأبحاث منها:

- العالم الفكري عند الحارث المحاسبي، عرض وشرح بناء على ترجمات لأعماله (1961).

- نظرية المعرفة عند عضد الدين الإيجي في «كتاب المواقف» (1966).
- تحقيق وترجمة لأخبار عمرو بن عبيد، تأليف علي بن عمر الدارقطني، بيروت (1967) - ضمن «سلسلة نصوص ودراسات بيروتية» التي يصدرها المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت (رقم 7).

- أول بدع المعتزلة (يتناول مسائل الإمامة ومقتطفات من الكتاب الأوسط في المقالات للناشئ الأكبر) تحقيق وتقديم (1971) - ضمن «سلسلة نصوص ودراسات بيروتية» (رقم 11).

- بين علم الحديث وعلم الكلام، برلين (1974).
- بدايات علم الكلام في الإسلام، بيروت (1977) - ضمن سلسلة «نصوص ودراسات بيروتية» (رقم 14).

ولا بأس أن نعرض بإيجاز لبعض هذه المؤلفات:

كتاب «أخبار عمرو بن عبيد» تأليف علي بن عمر الدارقطني الذي حقّقه

وترجمه إلى الألمانية الأستاذ الدكتور فان أس تضمّن مجموعة أخبار المتكلم المعتزلي عمرو بن عبيد المتوفي سنة 144هـ/761م كما دونها الدارقطني أحد المحدثين والفقهاء البغداديين المعروفين. والمخطوط موجود في مكتبة الظاهرية في دمشق وفيه تحريف قارنه المحقق خاصة بما ورد في «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادى و«ميزان الاعتدال» للذهبي فمكّنه من إعادة تركيب الصيغة الأصلية للمخطوطة. وفي هذا الكتاب 21 حديثاً مرفوعاً وتعليقات عليها تتناول آيات قرآنية كريمة.

وهو يقدّم للكتاب بتمهيد قصير بالعربية وبمقدمة موجزة بالألمانية وفي القسم الأول يترجم النصوص إلى الألمانية ويعلق عليها.

وفي القسم الثاني يتناول تاريخ النصوص وتكونها ويرى أنها ضد القدرة. كما يرجع إلى مصادر الدارقطني وإلى الرواية المتأخرة للنصوص. ووفقاً لأصول النشر العلمي فهو يثبت فهرساً للمراجع وفهرساً للأعلام.

وأما كتاب «مسائل الإمامة ومقتطفات من الكتاب الأوسط في المقالات» للنائى الأكبر المتوفي سنة 293هـ فحقّقه وقدّم له الأستاذ يوسف فان أس وفيه يذكر المؤلف أصول النحل التي اختلف فيها أهل الصلاة.

يرى المؤلف أن المسلمين صاروا بعد وفاة الرسول في 8/6/632 أربع فرق. الأولى فرقة من الأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة والتمسوا الشركة في الإمامة وقالوا للمهاجرين، منّا أمير ومنكم أميراً فقال لهم قوم من المهاجرين حضروا السقيفة: بل نحن الأمراء وأنتم الوزراء! الثانية فرقة ممن اعتزلوا مع علي بن أبي طالب وقالوا لا نبايع إلا علياً. وبعد أن بويع أبو بكر لم يبايعه علي إلا بعد ستة أشهر. الثالثة هم القوم الذين بايعوا أبا بكر ورأوا أنه أحق بالإمامة وأولاهم بالخلافة. ومنهم عمر بن الخطاب وهو أول من بايعه.

والرابعة بنو هاشم الذين اجتمعوا في منزل فاطمة مع علي بن أبي طالب فلما قتل عثمان قام بالأمر علي وبايعه المهاجرون والأنصار من أهل المدينة

وغيرها من أمصار المسلمين إلا أهل الشام وعلى رأسهم معاوية.

ثم جاء التحكيم بين معاوية وعلي وظهر الخوارج فافتרכת الأمة الإسلامية حيثئذ إلى ست فرق:

- 1 - فرقة علوية وهم علي وشيعته.
 - 2 - فرقة عثمانية وهي أهل البصرة الذين قاتلوا علياً مع طلحة والزبير وعائشة.
 - 3 - فرقة المعتزلة وهم الذين اعتزلوا الحرب حتى يعرفوا أي الطائفتين أولى بالحق.
 - 4 - فرقة حليسية وهم الذين قالوا: كن في الفتنة حلساً من إحلاس بيتك (يقال حلس بالمكان، أقام).
 - 5 - فرقة حشوية، وهم طغام⁽¹⁾ أهل الشام وأتباع معاوية.
 - 6 - وفرقة محكمة هم الخوارج أصحاب النهروان.
- يضاف إليها فرقة سابعة هم المرجئة.

ثم يستطرد في الخلاف بين الفرق التي ما لبثت أن تشعبت إلى فرق ومذاهب جديدة. كما يذكر مقتطفات من الكتاب. وهو يقدم للكتاب الذي يهديه إلى المستعرب الألماني المعروف الأستاذ رودي باريت (1901 - 1983) لبلوغه السبعين من عمره. وكذلك يتناول الحياة والأعمال للناسي ويورد فهرساً للأشعار وفهرساً للمراجع وللأعلام.

وكتاب «بدايات علم الكلام في الإسلام» يضم رسالتين في الرد على القدرية من القرن الأول للهجرة واحدة للحسن بن محمد بن الحنفية وواحدة للخليفة عمر بن عبد العزيز. مع ملحق أخبار في غيلان الدمشقي. حققها وترجمها وعلق عليها يوسف فان أس، ثلاثة أقسام مستقلة تحتوي على نصوص ومواقف لشخصيات إسلامية بارزة في فجر الإسلام، تتعلق كلها

(1) الطغام: أوغاد الناس.

بموضوع القدر.

الأول يعالج نص رسالة في الرد على القدرية منسوبة إلى الحسن بن محمد بن الحنفية، حفيد الخليفة علي بن أبي طالب. ويظهر أن هذه الرسالة كتبت بإيحاء من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (- 86هـ). وأن تاريخ تأليفها يرجع إلى 73هـ فإذا صح هذا التاريخ تكون أقدم من الرسالة المبكرة التي تعنى بالقدر والتي وضعها الحسن البصري (- 100هـ) إلى الخليفة نفسه، وهي تعد - مع كتاب الإرجاء للحسن بن محمد بن الحنفية ذاته - أقدم ما وصلنا من الوثائق عن بدايات علم الكلام في الإسلام.

تمتاز رسالة الحسن بن محمد في الرد على القدرية على رسالة الحسن البصري في الموضوع نفسه وكتاب الإرجاء المذكور آنفاً، بأنها تنتهج نهجاً جدلياً خالصاً، قاعدته الأساسية مجادلة مفترضة بين من يقولون بالقدر (ويمثلهم المؤلف) وبين من ينكرونه (من خصوم المؤلف).

يتطلب علم الكلام طريقة معينة في معالجة القضايا الدينية ولم تتوافر لدينا نماذج مبكرة سوى عدد قليل كله يرتبط بالمعتزلة دون غيرهم من المتكلمين.

قام المستشرق فان أس بترجمة النصوص إلى الألمانية وشرحها وأجرى مقارنة بينها وبين آراء المعاصرين للمؤلف، كما قدم نبذة عن حياته.

ويتناول القسم الثاني رسالة كتبها الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (- 101هـ) إلى بعض القدرية المجهولين.

والقسم الثالث يتناول شخصية من أوائل القدرين هي غيلان الدمشقي الذي أعدم في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (- 125هـ). ولعلها قصص موضوعة لتدعم حق السلطة بإعدامه.

وأصدر الأستاذ فان أس مؤخراً كتاباً موسعاً في ستة مجلدات بدأ نشره في برلين ونيويورك في 1991 حول «علم الكلام والمجتمع في القرنين الثاني والثالث للهجرة». وهو يستعرض فيه الأفكار الدينية في عهود الإسلام المبكرة.

في القسم الأول من الكتاب حاول بناء الوضع الديني في المقاطعات الثقافية المنفردة. وفي القسم الثاني يصبح المركز هو بلاط الخليفة في بغداد. ثم يتناول ظهور المعتزلة منذ نهاية العصر الأموي وحتى النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة.

وهو يتناول الجبائي من مدرسة البصرة والخياط والكعبي من مدرسة بغداد. ثم يتناول الفكر الإسلامي في بلاد الشام وفي العراق (الكوفة) كما يتناول مواضيع: المتصوفة والشيعة والزيدية والإمامية والمرجئة والزنادقة.

وفي المجلد الثاني يتناول البصرة، والحسن البصري والقدر والقدرية في الحديث النبوي والغيلانية والمعتزلة وواصل بن عطاء، ومدرسة البصرة المعتزلية في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، وفكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. كما يتناول الإسلام في تلك الحقبة في إيران وشبه الجزيرة العربية، في الحجاز ومكة والمدينة، وكذلك في مصر.

وفي الجزء الثالث موضوع تكون الأفكار الإسلامية وازدهار علم الكلام. وعلماء الكلام في جوار المأمون، والمأمون في بغداد وازدهار المعتزلة وبلاط المأمون والحياة الفكرية في بغداد، والنظام والمعرفة والروح والجسد والإجماع وأوضاع غير المسلمين: اليهود والمسيحيين، ومحنة أحمد بن حنبل وأنصاره.

والجزء الرابع يشمل أوضاع المعتزلة بعد المحنة والبصرة حتى أواسط القرن الثالث للهجرة. وكذلك المعتزلة في بغداد والمرجئة. وانتشار المعتزلة في القرن الثالث للهجرة في العراق والجزيرة العربية والشام وأرمينيا وإيران والهند والمغرب وصولاً إلى إسبانيا والأندلس. وكذلك المتصوف البغدادي الشهير الجنيد وابن الراوندي. ومواضيع حول وجود الله ووحدايته وصفاته وكذلك صورة الإنسان وجسده وروحه وإرادته والحياة بعد الموت.

والجزء الخامس يشمل الشام والمرجئة في الكوفة والبصرة، والخوارج وواصل بن عطاء وأبو عمرو بن العلاء وعمرو بن عبيد وعدداً من المتصوفة.

وفي الجزء السادس النظام وتلامذته والجاحظ وحلقات المتكلمين في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة أمثال المحاسبي وأبي عيسى الوراق وابن الراوندي.

لا يتسع المجال للاستفاضة في استعراض هذا الكتاب/المرجع، ولكن يكفي أن نقول عنه إنه كتاب جامع شامل لا يترك زيادة لمستزيد في المواضيع الهامة التي تبحث في الإسلام والفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي وخاصة علم الكلام في القرنين الثاني والثالث للهجرة حيث المراجع قليلة أو نادرة وتتناول الإسلام ليس في دنيا العرب بل وفي المجتمعات غير العربية حيث انتشر؛ مما يعكس سعة اطلاعه وتعمقه وتضلعه وشموليته.

هذا هو المستعرب الألماني الكبير الأستاذ يوسف فان أس الذي استحق أن يدعى المستعرب بامتياز، والذي قدم في كتابه هذه الأفكار الدينية وانعكاسها على المجتمع الإسلامي في القرنين الثاني والثالث للهجرة وكيف أدت إلى الفكر الإسلامي الكلاسيكي الذي نعرفه اليوم.

جمعية المستشرقين الألمان

وهي تعد من أبرز الجمعيات الاستشراقية في العالم، أسسها المستشرق فلايشر (Fleischer) سنة 1845 في مدينة هاله (Halle) على غرار الجمعيتين الآسيويتين الفرنسية والبريطانية⁽¹⁾. وهي ما زالت حتى اليوم تواصل نشاطها في جمع شمل المستشرقين الألمان وإقامة المؤتمرات الدورية ودراسة التراث العربي ونشر كنوزه. وقد انتقل مقرها بعد الحرب العالمية الثانية، أي سنة 1948، من مدينة هاله إلى مدينة ماينس (Mainz)، ولكنها عادت بعد أن توحدت ألمانيا إلى مقرها القديم في مدينة هاله.

وهذه الجمعية تنشر مجلة هامة تُعنى بالدراسات الشرقية هي مجلة

(1) تأسست الجمعية الآسيوية في فرنسا (Société Asiatique) سنة 1822. ثم تأسست الجمعية الآسيوية الملكية (The Royal Asiatic Society) في بريطانيا سنة 1823.

«المستشرقين الألمان» (ZDMG) منذ سنة 1847. يساهم فيها كبار المستشرقين الألمان تصدر مرتين في السنة ويتولّى الإشراف عليها الآن المستشرق تلمان ناغل (Tilman Nagel) (1942 -) الأستاذ في جامعة غوتنغن.

تضمّ جمعية المستشرقين الألمان اليوم أكثر من 600 عضو منهم أعضاء من غير الألمان ممن درسوا في الجامعات الألمانية وتفاعلوا مع الدراسات الشرقية.

ومن بين أعضائها أعضاء شرف منهم الدكتور إحسان عباس والدكتور نقولا زيادة. ولا بد لنا من ذكر مجلة «الإسلام» (Der Islam) التي أسسها الأستاذ بيكر (Becker) سنة 1910 في هامبورج وهي تعنى بعرض أبرز المؤلفات المتعلقة بالتاريخ والأدب والمجتمع الإسلامي.

وهناك أيضاً مجلة «عالم الإسلام» (Die Welt des Islams) التي أسسها الأستاذ كامبفماير (Kampffmeyer) في برلين سنة 1913، وهي تعنى بالعالم الإسلامي.

ومجلة «أوريانس» (Oriens) أسسها الأستاذ ريتز (Ritter) في إستانبول سنة 1948 وهي تعنى بالدراسات العربية. وهناك مجلات أخرى لا يتسع المجال لتناولها.

المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت (Orient-Institut)

تأسس هذا المعهد سنة 1961 وهو تابع للجمعية الألمانية للدراسات الشرقية وهو أول معهد يجري تأسيسه خارج ألمانيا.

كان صاحب فكرة تأسيس هذا المعهد أستاذي هانس فير الذي كان أمين جمعية المستشرقين الألمان وهو كان يود أن يؤسس هذا المعهد في دمشق على اعتبار أن دمشق أقدم عاصمة عربية وهي مدينة عربية عريقة. يومها كانت الوحدة بين سوريا ومصر. ولما تقدمت ألمانيا بطلب الموافقة على إنشاء هذا المعهد في دمشق اشترطت حكومة الجمهورية العربية المتحدة أن يُعين مدير

عربي إلى جانب المدير الألماني. ولما كانت جمعية المستشرقين الألمان لا ترى ضرورة لذلك، لأن هذا المدير المحلي لن يكون له أي عمل يقوم به؛ عندئذٍ تقدمت الحكومة الألمانية بالطلب إلى الحكومة اللبنانية التي لم تشترط مثل هذا الشرط فتقرّر إنشاء المعهد في بيروت. وتأسس في 1/5/1961 وكان يشغل شقة في الطابق الثاني في بناية الصمدي شارع مدام كوري بالقرب من فندق البريستول - وهي البناية التي سكن في الطابق الأول منها الشاعر الكبير عمر أبو ريشة - ثم انتقل المعهد إلى مركزه الحالي في فيلا مود فرج الله، زقاق البلاط، شارع حسين بيهم.

أول مدير للمعهد كان الأستاذ الدكتور هانس روبرت رويمر (Hans Robert Roemer) (1915 - 1997) ثم تعاقب على إدارته عشرة مستشرقين من بينهم مستشرقان ويتولّى إدارته اليوم الأستاذ الدكتور مانفرد كروب (Manfred Krop).

وبسبب الأحداث في لبنان اضطرّ العاملون فيه إلى تأسيس مركز فرعي في إستانبول أصبح منذ سنة 1987 فرعاً مستقلاً.

وهذا المعهد الذي يضم مكتبة ضخمة ويهيئ الجو للباحثين الألمان للعمل فيه، يقوم بنشر سلسلة من الكتب تعرف بـ «نصوص ودراسات بيروتية» (Beiruter Texte und Studien) - صدر أولها سنة 1964 وهو دراسة لي عن اللهجة اللبنانية هي الأولى باللغة الألمانية - والتي فاق الآن عددها الـ 75 كتاباً.

ويعنى المعهد كذلك بإصدار «المكتبة الإسلامية» (Bibliotheca Islamica) وقد صدر منها ما يزيد على الخمسين كتاباً.

الخلاصة

بعد هذه الجولة المقتضبة في الاستشراق الألماني في القرن العشرين يطرح السؤال نفسه: ما هو مستقبل الاستشراق عامة والألماني منه خاصة؟

يعتقد البعض أن الاستشراق إلى ضمور. أما أنا فإني أرى أن الاستشراق لن يتوقف أو يضعف بل إنه سينمو ويتطور ويتناول مواضيع جديدة.

ففي السنوات الأخيرة أخذ الاستشراق الألماني يركّز على العالم العربي المعاصر ودراسة اللغة المعاصرة واللهجات العربية إلى جانب اللغة الفصحى واللغات السامية، ويهتمّ بمتابعة التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البلاد العربية، ومن هنا كثر هذا النوع من الدراسات الاجتماعية والسكانية والجغرافية. أضف إلى ذلك الاهتمام بالأدب الحديث وبالدراسات اللغوية المعاصرة وهو ما يعرف بالألسنية.

ولكن ذلك لا يعني أن الاستشراق سيتخلّى عن الدراسات القديمة كاللغة والتراث والإسلام والتاريخ القديم واللغات السامية.

ويتنا نجد شيئاً من التخصص في هذا الحقل بحيث إن بعض الجامعات باتت تعنى ببعض الجوانب وتركز عليها دون سواها.

كما أن عدد الجامعات أخذ يتزايد. ففي العقود الأخيرة تأسست عدة جامعات أخذت تلبي حاجات الطلاب الذين يُقبلون على الدراسات الاستشرافية والذين يمكن تصنيفهم إلى ثلاث فئات:

- 1 - الطلاب الألمان الذين يتخصصون باللغة العربية والإسلام.
- 2 - الطلاب الألمان أو العرب الذين يدرسون العربية كمادة فرعية إلى جانب تخصصهم بالعلوم السياسية أو الاقتصادية أو سواها.
- 3 - أولاد المهاجرين المسلمين، وفي غالبيتهم من الأتراك، الذين ولدوا في ألمانيا والذين يُقدمون على دراسة اللغة العربية والإسلام للاطلاع على حضارة آبائهم.

هذه لمحة سريعة عن الاستشراق الألماني المشرق الذي سيبقى في يقيني محافظاً على تفوّقه وتفردّه.